

الكتاب الثاني  
اجتهاد الرسول ﷺ

obekandi.com

## الفصل الأول

### اجتهاد نبينا ﷺ

سنعرض في هذا الباب لكثير من الصور التي بدا فيها رأيه ﷺ، وهي كثيرة متنوعة.

#### • ما بدا من اجتهاده في صورة التمني

١ - أحب ﷺ أن يكون البيت الحرام قبلته في الصلاة، بعدما مكث متجها فيها إلى بيت المقدس أكثر من ستة عشر شهراً.

٢ - فأجابه الله إلى ما طلب، وصرف قبلته إلى الكعبة بما أنزله في الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

يروى البخارى عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت - وفي رواية: كان يحب أن يوجه إلى الكعبة - فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فتوجه إلى نحو الكعبة<sup>(١)</sup>.

ويحدد ابن كثير في تاريخه - نقلا عن ابن عباس وابن مسعود - أن القبلة صرفت في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، ويزيد تحديداً بقوله: إن الجمهور الأعظم على أنها صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة.

(١) وروى ابن ماجه من طريق أبي بكر بن عياش، قال: صلينا مع النبي ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة إلى الكعبة.

ويجمل النقل عن ابن عباس - فى رواية أحمد عنه فى : أن رسول الله ﷺ كان يصلى وهو بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما هاجر إلى المدينة ولم يمكن الجمع بينهما صلى إلى بيت المقدس . ويعلل رغبة الرسول فى التوجه إلى الكعبة فى الصلاة بأنها قبله أبهى إبراهيم ، وقد جاء داعياً إلى إحياء ملته وتجديد دعوته . والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعاً ، وهم نواة الدين وأساس الدعوة .

وهنا تراخى الوحي فى إجابة الرسول إلى ما أحبه ، فاجتهد عليه السلام أولاً وبدا اجتهاده فى صورة رغبة وأمنية فحققها له الله سبحانه وتعالى ، وبذلك أصبح ما رآه بالاجتهاد مشروعاً مقراً عليه من ربه .

\*\*\*

وفى جانب آخر أثناء دعوته ﷺ للإسلام كان بعض زعماء الكفار يحاول فى صور شتى أن يضع العراقيل فى سبيل انتشار دعوته ، مرة بالاستخفاف منه واتهامه بما لا يليق بداعٍ إلى الحق ، وأخرى بتقديم طلبات مبدين ضرورة إجابتها حتى يكون ذلك تمهيداً لتصديقه والسير فى اتجاهه . شأنهم فى ذلك شأن أى فريق معارض ، معاند فى معارضته . والرسول عليه السلام كانت تغلب عليه طبيعته البشرية فى بعض الأحيان إزاء ذلك ، مرة يتأثر فى دخيلة نفسه بما يتهمونه به ، وأخرى يتمنى نفسياً أن يأتى الله على يديه بما يحقق بعض ما طلبوا تحقيقه . لكن الله جلت قدرته وعزت إرادته هو الكفيل بأن يتنصر رسوله فى دعوته إلى الحق ، ولذا كان يتكفله بتقوية عزمه وطمأننته على مستقبل دعوته حين تستحكم الأزمة ، أو تشتد الرغبة فى مجاراتهم .

١ - يحكى الله سبحانه وتعالى بمثل قوله : ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَمْ لَا يُنظَرُونَ﴾ ، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> . بعض ما كان يطلبه الكفار من رسوله الكريم ويتمنى أن يجيبه الله إليه .

(١) الأنعام : ١٠ .

٢ - لكن لأمر يرتبط بمصلحة الدعوة، وبحكمة الألوهية لم يجبه الله فى بعض الأحيان إلى ما تمنى، وهو العليم الخبير.

يقول تعالى: ﴿فَدَعَلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَاتِّبِعْهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

والمفسرون يقولون فى معنى هذه الآيات<sup>(٢)</sup>: إن زعماء الكفار كانوا يقترحون

(١) الأنعام: ٣٣ - ٣٥.

(٢) ويقول صاحب المنار: والمختار فى المراد بما يحزنه مما يقولون إنه هو ما تقدم أول السورة من قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ...﴾ إلخ، وما فى معناه. والكلام فى طائفة الجاحدين كبراً وعناداً كأبى جهل، والأخنس بن شريق الثقفى. وهؤلاء لم يكونوا يعتقدون كذبه ﷺ، وإنما كانوا يحاولون صرف الناس عنه تارة بقولهم: ساحر وما مائله، وتارة: باقتراح آيات مخصوصة من نزول ملك، أو أن يكون له بيت من زخرف... إلخ.

والمعنى: أن الرسول ﷺ لشدة حرصه على هداية قومه كان يتمنى لو آتاه الله بعض ما طلب زعمائهم ظاناً أنهم بذلك يؤمنون فيتبعهم من عداهم فيقطع الشر ويعم الهدى - فكان الجواب: إنك إن استطعت الإتيان بآية مما اقترحوا من عند نفسك فافعل أى أنك لا تستطيع يا محمد الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا اقتضت مشيئتنا أن نؤتيك ذلك لعلنا بأن ذلك لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم؛ لأنهم معاندون عن معرفة فلا ينفع فيهم شيء. ولو جئنا بما اقترحوا ولم يؤمنوا لاهلكتناهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقَضَى الْأَمْرَ لَمْ لَا يُنظَرُونَ﴾.

ومعنى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: لو شاء الله جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم بجعل الإيمان ضرورياً لهم، كالملائكة. ولكنه تعالى شاء أن يكون بالاختيار ليتحقق نظام هذه الدار المعدة للتكليف المستبوع للثواب والعقاب. فإذا عرفت أن هذه سنة الله فى هذا النوع من الخلق فلا تكن من الجاهلين بسنة الله الذين يتمنون ما يرونه حسناً، وإن كان حصوله ممتنعاً لكونه مخالفاً للحكمة الإلهية. فالجهل هنا ضد العلم، لا ضد الحلم. وليس كل جهل بهذا المعنى عيباً؛ لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً. وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه، ثم بجهل ما ينبغي له ويعد كمالاً فى حقه إذا لم يكن معذوراً فى جهله. قال تعالى فى وصف الفقراء المتعفين: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعْفُفِ﴾. فوصف =

الآيات عليه ﷺ، وكان ﷺ يتمنى لو آتاه الله بعض ما طلبوا حرصاً على هدايتهم، ودفعاً لحزنه وأسفه لكفرهم. ولكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون، وفوق ما يطلبون، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١).

فالرسول عليه الصلاة والسلام إزاء طلب الكفار اعترته حالة نفسية هي حالة المتمنى، وذلك من حالات الإنسان كإنسان. ولاشك أن نزول الآية الكريمة بعدم إجابته إلى ما تمنى قطع لهذه الحالة عنده أو تصحيح للوضع كما يجب أن يكون عليه. والرسول الكريم بتمنيه هذا كأنه رأى ذلك لتيسير السبيل لدعوته. والله جل شأنه بعدم موافقته على ذلك - بناء على علمه بطبيعة هؤلاء الطالبين وأمثالهم - قد حدد الطريق السليم لنجاح دعوة رسوله ﷺ.

لكن أكان التحديد منه جل شأنه للطريق القويم فور تمنيه ﷺ؟ أم حصلت بين الأمرين فترة زمنية تجعل وقوع أحدهما إثر الآخر معتبراً في تصور الإنسان على سبيل التراخي؟. والحكم على ذلك أيضاً شاق عسير. بالأخص إذا علم أن التمنى أمر نفسى لا يستطاع معرفة بدايته عند المتمنى لغيره. والرسول عليه السلام وهو

---

= الجهل هنا لم يكن ذماً. وكل ما يتوقف علمه على الوحي الإلهى لا يكون جهل الرسول به عيباً قبل نزول الوحي به. وإنما الذى يذم هو الجهل المرادف للسفه وهو ضد الحلم. وما قيل لنبينا ﷺ يشبه ما قيل لسيدنا نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ - أى بسبب إدخال ولدك الكافر فى عداد أهلك المؤمنين.

وإنما اقترن نهى نوح بالوعظ لأن عاطفة الرحمة الوالدية حملته على سؤال ما ليس له به علم اعتماداً على استنباط اجتهادى غير صحيح؛ لأنه فهم أن وعد الله بنجاة أهله يشمل أهل النسب وإنما مراد الله أهل الإيمان. ورحمة محمد ﷺ خاتم الرسل كانت أعم وأشمل؛ لأنها للأمة قاطبة لا للولد والقريب فقط.

وغاية ما تشير إليه الآية ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أنه تمنى ولكن لم يسأل صراحة وأيضاً لو سأل لسأل آية يهتدى بها الضال من قومه لا الكافر من أهله فقط. فلذا اكتفى سبحانه وتعالى فى إرشاده بالنهى فقط، وحسن فى إرشاد نوح التصريح بالوعظ، والله أعلم.

(١) الأنعام: ٧.

الذى كان هنا فى حال المتمنى لم يخبر بذلك، والله وهو الذى وسع علمه كل شىء لم يوح على لسان نبيه المصطفى أيضاً بذلك.

\*\*\*

وفى حادثة ثالثة كان من تقاليد العرب فى جاهليتهم أنه لا يتزوج الرجل زوجة متبناه، إذا طلقها أو مات عنها. لأنهم كانوا يعتبرون زوجة المتبنى كزوجة ابن الصلب تماماً. ولما جاء الإسلام بإبطال هذه العادة وكانت مسائل النكاح من الحساسية عند العرب بدرجة شديدة أراد الله أن يكون تشريع الإبطال نافذاً على وجه يقطع كل قول ويرفع كل حرج، فأمر رسول الله بأن يسمع طلاق زيد إذا جاء طالباً طلاق زوجته وأن يتزوجها هو نفسه لبيطل هذه العادة.

١ - وكان ﷺ من جهته يخشى أن يكون فى ذلك فرجة يدخل منها متقولو المنافقين، وفرصة ينتهزها الخصوم من الكافرين فتمنى أن يجعل الله إبطال هذه العادة على يد غيره، تمنى ﷺ ذلك فى دخيلة نفسه ولم يفتح به أحداً.

٢ - فعوتب على ذلك من ربه، وأنزل الله فى ذلك آيات كثيرة من سورة الأحزاب. ومنها ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾<sup>(١)</sup>.

والحكم هنا أيضاً فى ترتب أحد الأمرين على الآخر، إن كان على الفور أم على التراخى، مثل حكمنا به فى سابقه للسبب الذى ذكر.

\*\*\*

### • ما بدا من اجتهاده فى صورة «أن هم ولم يفعل»

فى القرآن الكريم بعض آيات يؤذن ظاهرها بتوجيه العتاب من قبل الله سبحانه وتعالى إلى الرسول ﷺ على أمر نفسى جال بخاطره ولم يتعد ذلك إلى دائرة التنفيذ. فالله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) ستأتى زيادة إيضاح لهذه الحادثة عند الكلام عن «ما بدا من اجتهاده ﷺ فى صورة الأمر».

(٢) هود: ١٢.

والبغوى فى تفسير هذه الآية يذكر سبب نزولها، فيقول<sup>(١)</sup>:

١- إن كفار مكة لما قالوا: ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب لآلهتنا هم ﷺ أن يدع آلهتهم ظاهراً.

٢ - فأنزل الله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ...﴾ الخ.

وهى مؤذنة بتوجيه عتاب ضمنى على ما قام بنفسه من «الهم».

ويقول الله تعالى فى موضع آخر:

﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن تَبَتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

والآلوسى فى تفسيره يذكر سبباً لنزول هذه الآية، ويقول: وأخرج ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبى ﷺ، فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك!، وكان ﷺ يشتد عليه فراق قومه، ويحب إسلامهم، فرق لكلامهم فنزلت. . وفى شرحه لها يقول: والمعنى: إنك إن اتبعت أهواءهم أحللت نفسك محل المفترى علينا؛ لأنك بذلك أوهمت أن ذلك بوحي فكنت كالمفترى. والله أعلم.

وأياً كان سبب نزول هذه الآية أو التى قبلها فكلتاها تعطى أن رسول الله ﷺ جال بخاطره أمر نفسى يجول عادة بخاطر الإنسان كإنسان، ثم تبلور هذا الأمر النفسى فى صورة «هم» على تنفيذه، فعاتبه الله على ذلك مبيئاً له حكمته الإلهية فى خلاف ما همَّ على فعله.

\*\*\*

وكذا فى الحديث الشريف منه ما يعبر عن هذه الحال النفسية للرسول ﷺ، وهى حال الهم بفعل أمرٍ ما، ثم عدم فعله لمصلحة فى الترك.

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(١) بعد أن يشرح الجملة الأولى منها بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أى فلا تبلغه إياهم.

(٢) الإسراء: ٧٣ و٧٤.

١ - «والذى نفسى بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم أمر رجلاً فيؤمّ الناس، ثم أخالف<sup>(١)</sup> إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أن يجد عرفاً<sup>(٢)</sup> سمياً، أو مرماتين<sup>(٣)</sup> حسنتين لشهد العشاء». وفي رواية مسلم: «أخر ﷺ العشاء ليلة فخرج فوجد الناس قليلاً فغضب.. فذكر الحديث».

٢ - ولكنه لم يفعل ما هم على فعله إما باجتهاد آخر، أو بوحى من الله فى ذلك.

ويروى مسلم<sup>(٤)</sup> عن عائشة رضى الله عنها، عن جدامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لقد هممت أن أنهى عن نكاح الغيلة، حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم»<sup>(٥)</sup>.

قال العلماء: وسبب همه ﷺ بالنهى عنها خوف الضرر على الولد الرضيع. وكانوا يقولون: إن الأطباء ترى هذا اللبن داء، إذا شربه الولد ضوى واعتل. فلذا كانت العرب تكرهه وتتقيه بقدر الطاقة.

(١) أى آتيهم من خلفهم. قال الجوهري: خالف إلى فلان آتاه إذا غاب عنه.

(٢) العرق بفتح فسكون، قال الخليل: العرق عظم عليه لحم.

(٣) تثنية مرمة قيل: هى سهم يتعلم عليه الرمي. وقال ابن المنير: وتثنيته تشعر بتكرار الرمي، ويكون ﷺ أراد أن المتخلف قد جمع بين ما يؤكل وبين ما يتلهم به. قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى ذم المتخلفين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشيء الحقيقير من مطعوم أو ملعوب به مع التفريط فيما يحصل رفيع الدرجات ومنازل الكرامة.

أما سبب عدم تنفيذ ما هم به ﷺ هنا فلعله هو ما سيأتى فى حديث أبى هريرة عند البخارى الآتى فى ما بدا اجتهاده ﷺ فى صورة «الطلب»، حيث رجع ﷺ عن أمره بتحريق رجال أفسدوا، وقال: «إن النار لا يعذب بها إلا الله».

(٤) فى باب جواز الغيلة: والغيلة هى وطء المرضع.

(٥) وفى رواية أخرى عن مسلم عن جدامة أيضاً قالت: حضرت رسول الله ﷺ فى أناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً».

والنورى يعلق على هذا الحديث بقوله: وفي الحديث جواز اجتهاده ﷺ، وبه قال جمهور أهل الأصول.

وأيضاً هنا في صورة الهم وعدم الفعل يشق على الإنسان تحديد وقت العدول عن تنفيذه ﷺ ما هم أن يفعله، للسبب الذى ذكرناه فيما سبق.

\*\*\*

#### • ما بدا من اجتهاده في صورة «الطلب»

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: بعثنا ﷺ فى بعث، فقال:

١ - «إن لقيتم فلاناً وفلاناً - لرجلين من قريش سماهما - فحرقوهما بالنار.

٢ - ثم أتينا نودعه حين أردنا الخروج، فقال: إنى كنت أمرتك أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما». وفي رواية ابن إسحاق: «... ثم رأيت أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله»<sup>(١)</sup>.

ويعلق الحافظ ابن حجر بقوله: وفي الحديث جواز الحكم بالشىء اجتهاداً ثم الرجوع عنه.

\*\*\*

ويروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أنه قال: كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ - معنا أبو بكر وعمر فى نفر - فقام ﷺ من بين أظهرنا فأبطأ علينا، وخشينا

(١) قال الحافظ ابن حجر فى التعليق على هذا الحديث: وفى رواية ابن إسحاق: «إن وجدتم هبار ابن الأسود والرجل الذى سبق منه إلى زينب ما سبق فحرقوهما بالنار. يعنى ﷺ زينب بنته، وكان زوجها (أبو العاص بن الربيع) أسير يوم بدر ثم أطلقه ﷺ يرجع إلى مكة وأخذ عليه عهداً أن يترك زينب تهاجر: فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب بعد أن جهزها: فتبعها هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس فنخسا بعيرها فسقطت ومرضت من ذلك؛ مما أدى لوفاتها: فبعث ﷺ سرية، وقال: «إن وجدتموهما فاجعلوهما بين حزمتين من حطب ثم أشعلوا فيهما النار... ثم قال بعد ذلك إنى لأستحي من الله، لا ينبغي لأحد أن يعذب بعذاب الله!».»

واستطرد الحافظ فى التعليق، وقال: وقد أسلم هبار هذا فلم تصبه السرية وأصابه الإسلام فهاجر وعاش إلى خلافة معاوية. أما رفيقه فلعله مات قبل أن يسلم؛ إذ لم يظهر له بعد ذكر.

أن يقتطع دوننا، وفزعنا، فقمنا، فكنت أول من فزع حتى آتيت حائطاً للأنصار  
 لبنى النجار فدرت حوله حتى دخلته فوجدت رسول الله ﷺ، فقال: «أبو هريرة؟  
 فقلت: نعم يا رسول الله! قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا. وذكر ما  
 حصل. فقال ﷺ: يا أبا هريرة! .

١ - اذهب، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها  
 قلبه فبشره بالجنة.

فكان أول من لقيت عمر. فسألني فقلت: بعثني رسول الله ﷺ: من لقيت  
 يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين ثديي  
 فخررت لاستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة! فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت  
 بكاءً، وركبني عمر، فإذا هو على إثرى. فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا  
 هريرة؟ قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثني به فضرب بين ثديي ضربة حررت  
 لاستي، قال ارجع. قال رسول الله ﷺ: يا عمر! ما حملك على ما فعلت؟ قال:  
 يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا إله إلا الله  
 مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة؟. قال: نعم!. قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل  
 الناس عليها، فخلهم يعملون!.

٢ - قال رسول الله ﷺ: فخلهم! .

\*\*\*

وأيضاً في قصة زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، عندما توجه زيد هذا إلى  
 رسول الله ﷺ يريد تطليق زينب لسبب ذكره له.

١ - فقال الرسول الكريم لزيد: «أمسك عليك زوجك، واثق الله».

٢ - فعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ  
 عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ  
 تَخْشَاهُ...﴾<sup>(١)</sup>، فرجع عما أمر به زيداً مولاه.

(١) الأحزاب: ٣٧.

ونود من باب الاستطراد أن نذكر كلمة تتعلق بهذا الحادث، نظراً لما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ غير مقصود في تفسير هذه الآية الكريمة واتخذه المبشرون وأعداء الإسلام مرتعاً خصيباً للتضليل وتشويه الرسول ﷺ، حتى يكون أمام القارئ لهذه الرسالة ما يساعده على رد كيد الكائد لدينه.

روى ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن آية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> نزلت في زينب بنت جحش لما خطبها ﷺ لزيد مولاه فأبت، فأنزل الله الآية، فقبلت طوعاً لأمر الله. قال الألوسي في تفسيره تعليقاً على هذه الآية: وكان عرضه ﷺ عليها زواج مولاه زيد إلهاماً من الله، أو وحيًا، ليكون بعد وسيلة لما تلاه من التشريع.

وحاصل قصة «زينب وزيد» على ما أخذ من شرح البخارى والتفسير: أن المعروف أن الولد إما:

(أ) ولد نسب.

(ب) أو ولد رضاع.

(ج) أو ولد تبني مع معرفة الأب.

(د) أو ولد تبني مع عدم معرفة الأب.

وكانت العرب جرت في عاداتها أن لا يتزوج الرجل زوج ولده، أيًا كان الولد من هذه الأنواع الأربعة.

ولما جاء الإسلام أباح أن يتزوج الرجل امرأة متبناه المعروف الأب، إذا طلقها، أو مات عنها، وكانوا يسمون هذا «دعى فلان أو متبناه».

ولما كانت عوائد العرب في مسائل النكاح حساسة جداً في هذه الناحية وأراد الله إبطال عاداتهم هذه بتشريع مبيح على وجه ملزم بالحل لكل من تحدته نفسه بالتحلل منه، أوحى إلى رسوله ﷺ أن يزوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة، وأنه إذا طلقها زيد بعد ذلك يتزوجها ﷺ ليبطل تلك العادة

(١) الأحزاب: ٣٦.

بنفسه هو حتى تكون قوة القدوة ماحقة لقوة العادة. ولهذا كانت العناية الإلهية بهذا الموضوع ظاهرة في هذه السورة - الأحزاب - من أولها. وقد نزلت في السنة الخامسة من الهجرة، على ما قال ابن الأثير، وجاء في أولها تمهيداً لهذا التشريع العظيم الذي حارب عادة تأصلت في نفوس العرب من قرون طويلة قوله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٤١ ﴾

ادعؤهم لأبائهم هو أفسط عند الله... ﴿ إلخ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى في موضوع الحادث: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ٣٦ ﴾ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً <sup>(٣٧)</sup> ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً <sup>(٣٨)</sup> الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً <sup>(٣٩)</sup> ما كان محمد أباً أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً <sup>(٤٠)</sup> .

ويعلق الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله: أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي، فقال: إن هذه الآيات نزلت في زينب بنت جحش - وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمه رسول الله ﷺ، وكان خطبها ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وقال لها: «إني أريد أن أزوجك زيد ابن حارثة، فإني قد رضيت لك» فأبت، وقالت: يا رسول الله! لكنني لا أرضاه لنفسي، وأنا بنت عمك فلم أكن لأفعل - وفي رواية أنها قالت: وأنا خير منه حسباً - ووافقها أخوها عبد الله على ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ... الآية .

(١) الأحزاب: ٤، ٥ .

(٢) الأحزاب: ٣٦ - ٤٠ .

ويقول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: لما نزلت الآية رضيتُ هي وأخوها، فأنكحها ﷺ زيداً، وساق إليها عشرة دنانير وستين درهماً مهراً مع أشياء أخرى من طعام ولباس.

ولما كان هذا الزواج غير طبعي لما علمت من مكانها ومكانه، ومن رغبتها عنه وأنفتها وتواضعه هو وانكساره كان ما لا بد منه عادة. وقد جاء زيد إليه ﷺ يوماً، وقال: يا رسول الله إن زينب قد اشتد على لسانها، وأنا أريد أن أطلقها. فقال له ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ إِنْخ، فأنزل الله آيات الأحزاب السابقة<sup>(١)</sup>

(١) والمفسرون يشرحون هذه الآيات فيذكرون ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام وبجعله تحت رعايتك ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعق والتربية الحسنة ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الذي أخفاه ﷺ على ما أخرجه الترمذى وغيره عن على بن الحسين: هو ما أوحى الله تعالى به إليه أن يتزوجها بعد طلاق زيد لها ليتحقق التشريع المطلوب.

هذا ما ذهب إليه محققو المفسرين كالزهري، وبكر بن العلاء، والقشيري، وأبى بكر ابن العربي، وغيرهم. وقالوا: ويكون حاصل العتاب: لم قلت: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؟، وقد أمرت أن تتزوجها بعد طلاقها وعدتها. وهذا المعنى هو المطابق للحاصل من سياق الآيات؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. والله لم يظهر شيئاً كان خافياً سوى زواجه ﷺ بها، وقال: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ...﴾ فلو كان المضمرة المحبة كما يقول المفترون والجاهلون لما صحت الآية، لأن الله لم يظهر هذه ونقول نحن: والذي يظهر أنه ﷺ قال ما قال من شدة حياته ﷺ وخوفه من قالة السوء يطلقها المنافقون والمرجعون في المدينة، وقد كانوا كثيرين يتربصون مرتعاً يخبون فيه وينفثون من سموم الشكوك ما يطبقون. ورأى ﷺ أن في موقفه هذا أمناً على المسلمين من شر فتنة، خصوصاً من كان قريب عهد بالإسلام منهم، والظاهر أنه ﷺ كان يرجو من الله أن يعفيه من أن يكون هو القدوة العملية في هذا المبدأ، وأن هذا التشريع لا يتوقف نفاذه وإشهاره على أن يكون هو نفسه البادئ به، وبذلك تتحقق المصلحة في نظره ﷺ وينسد باب الفتنة. فهو لا يعدو أن يكون اجتهداً منه ﷺ أظهره الله على أن غيره هو الصواب.

وقد قال الحافظ ابن حجر: والحاصل أن الذي كان يخفيه ﷺ في نفسه هو أنها ستكون زوجته، والذي كان يحمل على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه. وأراد الله إبطال هذه العادة بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو وقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أذى لقبولهم.

ومثل هذا ما قاله الخفاجى على الشفاء، وعبارته: والظاهر أن الله تعالى لما أراد نسخ تحريم =

معاتباً له على قوله هذا، ولم يجبه إلى ما أراد، وهو أن لا يكون المباشر في إبطال العادة المذكورة.

لكن أكانت هناك فترة من الزمن بين أمره الذى عنون له بقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ

= زوجة المتبنى أوحى إليه ﷺ أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد، فلم يبادر ﷺ مخافة طعن الأعداء فعوتب على ذلك.

أخبر مسلم والترمذى عن عائشة وأنس - قالوا: لو كان محمد كاثماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾ - إلى قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ ويستطرد المفسرون فى الشرح، فيقولون: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ معناه ما صح أن يكون عليه ضيق ولا إثم فيما قسم الله له. قال الراغب: لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً أى مقطوعاً متميزاً عن غيره، معلوماً، وقال: كل موضع ورد فى القرآن «فرض عليه» ففى الإيجاب، و«فرض له» فهو فى الألا يحظره على نفسه ومنه قال قتادة فى معنى الآية: أى فيما أحل الله له، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾. أى من قبلك من الأنبياء حيث لم يحرج جل شأنه عليهم فى الإقدام على ما أحل لهم ووسع عليهم... ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا من قبل من الرسل ﴿وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ قال المفسرون. فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعريض بما صدر عنه ﷺ من الاحتراز عن لائمة الناس من حيث إن إخوانه المرسلين لم تكن سيرتهم التى ينبغى الاقتداء بها ذلك، وهذا كالتأكيد لما تقدم من التصريح فى قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ رد لمنشأ خشيته ﷺ للناس المعاتب عليها، وهو قولهم: أن محمداً تزوج امرأة ابنه، فقد رد كون زيد ابنه الذى تحرم زوجته على أبلغ وجه، والأبوة المنفية هنا هى الأبوة الحقيقية الشرعية، سواء أكانت بالولادة أم بالرضاع، أم تبنى من يولد مثله لثله وهو مجهول النسب، ومن المعلوم عندهم أن زيدا من رجالهم فليس له ﷺ عليه أى أبوة من هذه. ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ﷺ، لما كان من المشهور أن كل رسول أب لأمته فيما يرجع إلى وجوب تعظيمه وتوقيره ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه، وكان نفى الأبوة على الإطلاق ربما تعدى إلى ذلك، استدرك على ما يتوهم من نفى الرسالة بإثباتها تبيها على أن الأبوة المنفية شىء والمثبتة شىء آخر. فحاصل الكلام استدراك بعد نفى الأبوة الحقيقية الشرعية بإثبات الأبوة المجازية اللغوية التى هى من شأن كل رسول، وبذلك نفى توهم الملازمة بين الأبوتين. ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ جىء به مشيراً إلى كمال نصحه ﷺ وشفقتة عليهم، وأن أبوته لأمته فوق أبوة كل رسول لأمته؛ وذلك لأن الرسول الذى يشعر بأن بعده رسول ربما لا يبلغ فى الشفقة غايتها، وفى النصيحة نهايتها اتكالاً على من يأتى بعده، كالوالد الحقيقى الذى يعلم أن لولده من بعده من يقوم بشأنه مقامه. والله أعلم.

زَوْجَكَ ﴿ وَيَبِينُ عِتَابَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ لَهُ الَّذِي بَدَأَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ أم كان وقوع العتاب فور صدور هذا الأمر منه ﷺ؟ يتوقف تحديد ذلك على الثبوت التاريخي .

\*\*\*

### • ما بدأ من اجتهاده في صورة «الإذن»

ثم هنا أيضاً رأى الرسول ﷺ وبدأ رأييه في صورة «إذن وتسويغ» لشخص أو نفر من الناس، ثم نزل الوحي بتعديل رأييه:

١ - ففي حين استأذن بعض المنافقين النبي ﷺ التخلف عن غزوة تبوك فأذن لهم على ضعف أعدائهم - وتخلف من المؤمنين آخرون - فأنزل الله في الجميع آيات نزلت أثناء سفره ﷺ في نفس الغزاة، وهي قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ... ﴾ إلخ<sup>(١)</sup>.

٢ - وعاتبه سبحانه وتعالى على إذنه لهم بذلك، إذ وجه إليه الخطاب بقوله: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

والمنار في تفسير هذه الآية الكريمة يقول: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ العفو التجاوز عن الذنب والتقصير، وترك المؤاخذة عليه: ﴿ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ أى هلا استأنيت وتريثت بالإذن حتى يتبين لك الصادق في الاستئذان والكاذب الذي قرر التخلف أذنت أم لم تأذن، فمتعلق ﴿ حَتَّى ﴾ مفهوم من السياق. ثم يستطرد فيقول إن الزمخشري أساء الأدب في تفسير العفو<sup>(٣)</sup>. ويقول: إن الفخر الرازي في تفسيره جاء على الطرف الآخر محاولاً إثبات أن لا ذنب<sup>(٤)</sup>.

(١) التوبة: ٤٢، ٤٣.

(٢) التوبة: ٤٣، ونزلت هي وغيرها في هذه السورة في شأن غزوة تبوك، وهي «غزوة العسرة» المشهورة بشدة الحر وبعد الشقة، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة.

(٣) عبارة الزمخشري: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت.

(٤) إذ يرى أن العفو إنما هو مخالفة الأولى فقط.

ونحن من جانبنا نرى أن الفخر الرازي ما كان لمثله أن يهرب من إثبات ما أثبتته الله في كتابه في عدة مواضع لأنبياء كثيرين - نبينا ﷺ واحد منهم - تمسكاً باصطلاحات وعرف<sup>(١)</sup> مستحدث في «الذنب» مخالف لمداول اللغة. فالذنب في اللغة: كل عمل يستتبع ضرراً أو يفوت مصلحة، مأخوذ من «ذنب الدابة» وليس مرادفاً للمعصية؛ بل أعم منها، والإذن المعفو عنه هنا قد فوت المصلحة المنصوص عليها في الآية، وهي علم جميع الناس بالصادق والكاذب من هؤلاء المتخلفين. فكان المطلوب ألا يأذن ﷺ لهم حتى يفتضحوا على رءوس الأشهاد، وحتى لا يبهجوا ولو قليلاً بأنهم غرروا به ﷺ وأضلوه بالكذب. وقد نسب الله للنبي ﷺ الذنب في موضع آخر من كتابه العزيز، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وقد كان «الإذن» المعاتب عليه هنا اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي. وهو جائز على الأنبياء وليسوا معصومين من الخطأ فيه، فقد كان الأولى منه ﷺ أن يؤخر الإذن لهؤلاء المنافقين حتى يفتضحوا من أنفسهم.

\*\*\*

١ - وفي حين آخر يروى مسلم في صحيحه عن عامر ابن شراحيل الشعبي عن فاطمة بنت قيس - وكانت من المهاجرات الأول - قالت: نكحت ابن المغيرة، وهو من خيار شباب قريش يومئذ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله ﷺ: فلما تأيمت خطبني عبد الرحمن بن عوف، وخطبني ﷺ على مولاه أسامة بن زيد، وكنت قد حدثت أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبني فليحب أسامة» فلما كلمني ﷺ قلت: أمرى بيدك فأنكحني من شئت. فقال: «انتقلى إلى أم شريك».

٢ - فقلت: سأفعل. فقال: «لا تفعل! إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإني أكره أن يسقط عنك خمارك، أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهينه، ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبد الله بن أم مكتوم. . . فانتقلت إليه. . . إلخ<sup>(٢)</sup>».

(١) هو مرادفة الذنب للمعصية.

(٢) وفي رواية: «تأيمت وكان بيتي في مكان خال فحفت أن أعتد فيه. =

وفى مقام ثالث يروى الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا على رسول الله ﷺ أن لا يحشروا<sup>(١)</sup>، ولا يعشروا<sup>(٢)</sup>، ولا يجبوا<sup>(٣)</sup>، ولا يستعمل عليهم غيرهم.

١ - فقال ﷺ: «لكم أن لا تحشروا ولا تعشروا، ولا يستعمل عليكم غيركم، ولا خير فى دين لا ركوع فيه».

ويروى أبو داود عن جابر أنه يقول: اشترطت ثقيف على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد، وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك: ٢ - «سيصدقون، ويجاهدون»<sup>(٤)</sup>.

فأولاً أذن لهم رسول الله ﷺ بعدم إخراج الزكاة، وبعدم خروجهم إلى الجهاد. وهما أمران لا تقدم عليهما إلا النفس المؤمنة، المطمئنة فى إيمانها؛ إذ المال والنفس فى مقدمة ما يحرص عليه الإنسان ويبذل جاهداً دون أن يفقد واحداً منهما، ولا سبيل إلى التغلب على هذا الطبع البشرى إلا بالإيمان بأعز منهما، والله سبحانه وتعالى لدى المؤمن به حقاً أعز من النفس، والمال، والولد، والحياة الدنيا كلها.

ثم هو ﷺ ثانياً ترقب منهم أن يؤدوا الزكاة ويخرجوا إلى القتال بدافع

(١) فرخص لى النبى ﷺ فى النقلة إلى موضع آخر، فأمرنى أن أعتد فى بيت أم شريك.

(ب) ثم رجع ﷺ فقال: «إن أم شريك يأتيتها المهاجرون الأولون فانطلقى إلى ابن أم مكتوم

الأعمى؛ فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك».

(١) أى لا يندبون إلى المغازى.

(٢) أى لا يؤخذ منهم عشر أموالهم.

(٣) أى لا يصلوا.

(٤) قال فى اللسان: وأما حديث بشير بن الخصاصية حين ذكر له ﷺ شرائع الإسلام فقال: أما

اثنان منهما فلا أطيقهما: الصدقة والجهاد. فكفَّ ﷺ يده، وقال: «لا صدقة ولا جهاد! فىم

تدخل الجنة؟». فلم يحتمل ﷺ لبشير ما احتمل لثقيف. ويشبه أن يكون إنما لم يسمح ﷺ

لبشير لعلمه أنه يقبل إذا قيل له ما قيل، وثقيف كانت لا تقبله فى الحال. وأيضاً هو واحد

وهم جماعة، فأراد ﷺ أن يتالفهم ويترجمهم على الإسلام شيئاً فشيئاً.

الإيمان، دون احتياج إلى نصيحة أخرى منه، إن آمنوا وتغلغل الإيمان في قلوبهم<sup>(١)</sup>.

وهذا شأنه ﷺ يستدرج القوم رويداً رويداً، ويلين لهم من جانبه ويتساهل في مطالبه تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد، حتى إذا وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعب على النفس وعلى المألوف من عاداتهم ويتحملون المشاق في كل جانب من جوانب حياتهم في سبيل نصرته ما آمنوا به واستمرار بقائهم عليه.

\* \* \*

ومما يدخل في هذا الباب للغاية نفسها ما يرويه أبو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه، قال: علمني رسول الله ﷺ فكان فيما علمني: «حافظ على الصلوات الخمس!». قال: قلت: إن هذه ساعات لي فيها أشغال، فحمرني بأمر جامع إذا أنا فعلته أجزأ عني، فقال:

١ - «حافظ على العصرين!» - وما كانت من لغتنا - فقلت: وما العصران؟ فقال: «صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) كما في رواية أبي داود عن جابر المقدمة.

(٢) ويروى أبو داود أيضاً، ومسلم، عن أبي بكر بن عمارة بن ربيعة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار رجل صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني الفجر والعصر.

ويعلق عليه الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصاري الحنفي النقشبدي في شرحه: [بذل المجهود في شرح سنن أبي داود] بقوله: «لا يلج النار» أي لا يدخلها أصلاً للتعذيب أو على وجه التأييد.

كما يعلق على رواية أبي داود عن عبد الله بن فضالة بقوله: قال [في درجات المرقاة]: قال ولي الدين: هذا الحديث مشكل بيادئ الرأي. إذ يوهم أجزاء صلاة العصرين لمن له شغل عن غيرهما، فقال البيهقي في تأويله - وأحسن - : كأنه أراد - والله أعلم - : حافظ عليها بأول أوقاتها، فاعتذر بأشغال مقتضية لتأخيرها عن أولها، فأمره بالمحافظة على الصلاتين - العصر والفجر - بأول وقتها.

لكن تأويل البيهقي على هذا النحو يبعد أن يكون الحديث تصويراً لرأى اجتهادى من الرسول =

ويروى أحمد في مسنده عن نصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبي ﷺ فأسلم على أنه لا يصلى إلا صلاتين، فقبل ذلك منه. ويعلق الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصارى الحنفى النقشبندى فى شرحه «بذل المجهود فى شرح سنن أبى داود» على رواية أحمد هذه بقوله:

فظهر بذا أنه أسقط عنه ثلاث صلوات. فكان من خصائصه ﷺ أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام؛ ويسقط عن من شاء ما شاء من الواجبات.

والظاهر أن هذا الرجل المبهم فى حديث أحمد بن حنبل هو فضالة الذى فى حديث أبى داود، فإنه لىثى، ونصر بن عاصم لىثى.

وقد ترجم الفتح الربانى لحديث مسند أحمد هذا بقوله: «فصل فى ترغيب المشركين فى الإسلام وتأليف قلوبهم»، وترجم له الشوكانى بقوله: «باب صحة الإسلام مع الشرط الفاسد».

٢ - لكن قبوله ﷺ من فضالة الاقتصار على صلاة العصرين كان قبولاً مؤقتاً، أملاً فى أن يصبح فيما بعد كبقية المسلمين يؤدى من فروض الصلاة ما يؤديه غيره.

وكان ما يترقبه الرسول ﷺ هنا من فضالة - بعد أن يتمكن الإيمان من قلبه - تعديل لما أذن له من أجزاء صلاة العصرين عن اليوم كله أول الأمر.

\*\*\*

وكذا ما فى رواية البخارى عن أم عطية من أنها قالت: بايعنا ﷺ فقرأ علينا: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾، ونهانا عن «النياحة» فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتنى<sup>(١)</sup> فلانة فأريد أن أجزئها.

= ﷺ يتصل بالتخفيف على الداخلين فى الإسلام، أملاً فى أن يعودوا فيما بعد إلى الوضع العام الذى التزمه كل المسلمين. والبيهقى بذلك يخالف حديث نصر بن عاصم عند أحمد ورأى «الفتح» و«الشوكانى» الذى ذكر فى هذه الصفحة.

(١) قال الحافظ: الإسعاد قيام المرأة مع الأخرى فى النياحة تراسلها، وهو خاص بهذا المعنى، ولا يستعمل إلا فى المساعدة على البكاء.

١ - فما قال لها ﷺ شيئاً<sup>(١)</sup> فانطلقت .

٢ - ورجعت فبايعها .

وفى رواية النسائي . . قال :

١ - فاذهبى فأسعديتها، فذهبت فأسعدتها .

٢ - ثم جئت فبايعت .

قيل فى تعليق هذا: الترخيص كان خصوصية لأم عطية، وقيل: إن ذلك كان قبل تحريم النياحة .

ورد القرطبي هذا التخريج الأخير - ووافقه الحافظ ابن حجر - وقال: دعوى أن ذلك كان قبل تحريم النياحة فاسدة لمساق حديث أم عطية . . فلولا أنها فهمت التحريم لما استثنت . وأيضاً أم عطية نفسها صرحت بالنهي عن النياحة .

ويرد - أيضاً - دعوى كون ذلك خصوصية لأم عطية بثبوت مثل ذلك لغيرها: فقد أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس لما أخذ رسول الله ﷺ على النساء فبايعهن أن لا يُشركنَ بالله شيئاً، قالت خولة بنت حكيم: يا رسول الله! كان أبى وأخى ماتا فى الجاهلية وأن فلانة أسعدتنى وقد مات أخوها . . الحديث . . وأخرج الترمذى أيضاً عن أم سلمة الأنصارية - وهى أسماء بنت يزيد - قالت: قلت يا رسول الله! إن بنى فلان أسعدونى على عمى ولا بد من قضائهن، فأبى . قالت: فراجعتهم مرارا فأذن لى، ثم لم أنح بعد . وأخرج أحمد والطبرى كذلك - من طريق مصعب بن نوح - قال: أدركت عجوزاً لنا كانت فىمن بايع رسول الله ﷺ، قالت: فأخذ علينا . . ولا ينحن، فقالت: عجوز: يا نبي الله! إن ناساً كانوا أسعدونا على مصائب أصابتنا، وإنهم قد أصابتهم مصيبة، فأنا أريد أن أسعدهم، قال: «فاذهبي فكافئهم» . قالت: فانطلقت فكافأتهم، ثم أتت فبايعته .

ولم يبق بعد رد القرطبي - لما سبق من تخريج الحديث على أن الإذن بالنياحة كان قبل تحريمها - إلا أن يكون الحديث معبراً عن اجتهاد منه ﷺ بغية تيسير

(١) وفى رواية عاصم: . . فقال ﷺ: «إلا آل فلان» .

الإسلام على من دخل جديداً فيه معتمداً على أنه سيكون فى سلك بقية المؤمنين بعد أن يتمكن نور الإسلام من قلبه .

فقد أذن ﷺ هنا بالنياحة - وهى أمر غير مرغوب فيه - وإذنه بذلك مؤقت ، والإذن المؤقت ينطوى على معنى العدول عن استمراره واعتباره قاعدة عامة .

\*\*\*

### • ما بدا من اجتهاده فى صورة «الدعاء»

وهذه صورة أخرى من الصور الكثيرة التى بدا فيها اجتهاده ﷺ ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بمعنى العبادة<sup>(١)</sup> ، وهى صورة الدعاء على بعض الناس من كافرين ومؤمنين لما وقع منهم من أحداث أثارت دخيلة نفسه عليه السلام .

١ - فالبخارى - ويوافقه فى الرواية أحمد والترمذى والنسائى - يروى عن ابن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد لما جرح وكسرت ربايعته<sup>(٢)</sup> ورأى تمثيل الكفار بعمة حمزة وبالمسلمين : «اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية» . فتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم ويسجل عليهم سخطه .

٢ - وفى إثر ذلك نزلت هذه الآية : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> .

فرسول الله ﷺ عندما دعا عليهم وطلب من الله أن يلعنهم كان ذلك عن اجتهاد منه . لكن لم يقره الله سبحانه وتعالى على اجتهاده إذ نهاه عما طلب بقوله الكريم فى هذه الآية السابقة ، على رأى من يرى من المفسرين أنها نزلت فى شأن أحد . ومن هؤلاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ويعلل ما اتجه إليه بقوله فيما

(١) فقد ورد : «الدعاء مخ العبادة» .

(٢) الرباعية بفتح الراء هى التى بين الثنية والتاب . وأراد بكسرها أنها ذهبت منها فلقه ولم تعلق من أصلها . والرباعية التى كسرت منه ﷺ هى السفلى اليمنى .

(٣) آل عمران : ١٢٨ .

نقل عنه من تفسير للقرآن الكريم: ما قبل الآية وما بعدها<sup>(١)</sup> فى قصة أحد، فيجب أن يكون الكلام كله فى أحد صونا للقرآن عن تكلف ينزه عن مثله كلام الله .

ثم هذا مثل آخر لهذه الصورة من صور اجتهاده ﷺ، وهى دعاؤه على بعض المؤمنين :

١ - فمسلم يروى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان فكلماه بشيء لا أدرى ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما - وفى رواية فخلوا به فسيهما ولعنهما وأخرجهما - فلما خرجا قلت يا رسول الله ما أصابا من الخير شيئاً؟ قال: وما ذاك؟ قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: أو ما علمت ما شارطت ربي عليه؟

٢ - قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً.

(١) الآية التى قبلها: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمِبُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ ، والتى بعدها قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .  
وبعض آخر من المفسرين يرى فى سبب نزول الآية أنها كانت فى دعائه ﷺ على أصحاب بئر معونة - وكانت بعد أربعة أشهر من أحد - ودعا عندها على رعل وذكوان وعصية . . الخ .  
ومعنى قوله تعالى ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أنه متعلق بقوله: ﴿ وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ ، واختار بعضهم أنه متعلق بمفهوم من المقام متعلق بواقعة أحد المقصودة بالكلام بالذات لأن ذكر بدر إنما جاء استطراداً . ويكون المعنى: فعل الله ما فعل ليقطع طرفاً أى يهلكهم . ومعنى قوله جل شأنه ﴿ أَوْ يَكْتُمِبُمْ ﴾ - كما يقول البيضاوى - يخزيهم . والكبت شدة الغيظ أو وهن يقع فى القلب . وقوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ اعتراض بين المعطوفات . وقوله ﴿ أَوْ يُتَوَّبَ عَلَيْهِمْ ﴾ معطوف على يكبتهم . ومعنى ﴿ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ﴾ هو بما أعد لهم فى الآخرة من عذاب أليم ، والمراد بتعذيب هذا الفريق هو التعذيب الشديد جداً المخصوص بأشد الكفرة كفرةً، وإلا فمطلق التعذيب الأخرى متحقق فى الفريقين الأولين . فـ «أو» فى الآيات للتنوع لا للترديد . والمعنى كله: أنه يقطع طرف طائفة، ويكبت طائفة أخرى، ويتوب على طائفة، ويعذب أخرى عذاباً أكبر .

ومعنى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ : ليس إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى، وتنتهى فيهم إلى طاعتي، إنما أمرهم بعد ذلك إلى والقضاء فيهم بيدي دون غيرى، أفضى فيهم . وأحكم بالذى أشاء حتى بالتوبة على من كفر بى . . الخ .

فالرسول عليه السلام كما يؤخذ من هذه الرواية قد سلك مسلك الإنسان العادى يغضب ويلعن لأمر يثير نفسه، ثم يعود فيرجع ويطلب من ربه - شفقة ورحمة - أن يجعل الدعاء على من دعا عليه من المسلمين دعاءً له بأن يكون زكاة وأجرًا له. وفي هذا يروى مسلم عن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر وإنى قد اتخذت عندك عهدًا لن تخلفنيه: فأیما مؤمن أذيته أو سببته فاجعلها له كفارة وقرية تقربه بها إليك يوم القيامة».

ونحن فى إسنادنا الاجتهاد إلى الرسول ﷺ لا نبغى أكثر من أن نقرر أنه ﷺ بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر، فيما عدا ما خصه الله به من رسالة فهو فيها معصوم وقوله فيها قول الحق جل جلاله<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### • ما بدأ من اجتهاده فى صورة تفضيل الترك على الفعل

وهذا نوع آخر غير ما تقدم من الأمثلة التى تدل على اجتهاده ﷺ وبالتالى على أنه بشر إلا فيما عصمه الله فيه فى دائرة الرسالة والتبليغ، وهو اجتهاده عليه

(١) ويشبه هذه الصورة الأخيرة ما يرويه مسلم أيضاً عن أنس بن مالك، قال: كانت عند أم سليم يتيمة. فرأى ﷺ اليتيمة فقال: أنت هيه - أنت هيه بمد الهمزة وفتح الياء استفهام على معنى التعجب وكأنه (ﷺ) رآها قبل ذلك صغيرة ثم غابت عنه مدة فرآها قد كبرت فتعجب من سرعة ذلك. ودعاؤه عليها من الدعاء الجارى على اللسان من غير قصد -؟ لقد كبرت! لا كبر سنك. فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكى فقالت أم سليم: ما لك يا بنية؟ قالت الجارية: دعا على ﷺ إلا يكبر سننى أبدأ. فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث - تلوثه أى تديره على رأسها - خمارها حتى لقيت رسول الله ﷺ، فقال لها ﷺ: ما لك يا أم سليم؟ فقالت يا نبي الله أدعوت على يتيمتى؟ قال: وما ذاك يا أم سليم؟ قالت: زعمت أنك دعوت ألا يكبر سننها. قال: فضحك ﷺ ثم قال: يا أم سليم! أما تعلمين أنى اشترطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأیما أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقرية تقربه بها يوم القيامة. قال القرطبي: والحديث يدل على أن الصغار والكبار كان معلوماً عندهم قبول دعائه (ﷺ) ولذا فرغت أم سليم من دعائه على جارتها. وبكت اليتيمة لما سمعت دعاءه عليها.

السلام فى صورة تفضيل الترك على الفعل . فىروى عنه ﷺ فى «تلقيح النخل» أنه نصح لهم بعدم تلقیحه اجتهاداً منه بأن فى ذلك مصلحة . ولما نفضت غلته فىما بعد بسبب عدم تلقیحه وذكروا له ذلك قال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دینکم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر» . یرویه مسلم فى صحیحه<sup>(١)</sup> عن رافع بن خدیج . ونص الروایة : قال قدم النبى ﷺ المدينة وهم یأبرون النخل فقال : ما تصنعون قالوا : كنا نصنعه ! قال : لعلکم لو لم تفعلوا كان خیراً ، فتركوه فنفضت قال فذكروا ذلك له ﷺ فقال : «إنما أنا بشر . . . إلخ . وفى رواية أحمد : ما كان من أمر دینکم فإلى وما كان من أمر دنیاکم فأنتم أعلم به .

وفى رواية أخرى لمسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحونه يجعلون الذكر فى الأنثى فيتلقح ، فقال ﷺ : ما أظن يغنى ذلك شيئاً ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر بذلك فقال ﷺ : «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعه ، فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل» .

وفى رواية ثالثة له أيضاً عن عائشة وأنس أنه ﷺ مرّ بقوم يلقحون النخل فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، فخرج شيصاً ، فمر بهم فقال : ما لنخلکم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمور دنیاکم .

وأياً كانت صيغة الرواية عنه ﷺ فى ذلك فقد رأى رأياً فى صورة ما - هى هنا صورة تفضيل الترك على الفعل - تبين له فىما بعد خلافه بحكم ما صار إليه الأمر فى الواقع . ولما كان الذى رآه عليه السلام هنا لم يحقق مصلحة لقومه بل جلب مضرة لهم اعتذر من ذلك واستنّ لهم مبدأ عاماً فى اتباع ما يقوله وهو . . . إذا أمرتكم بشىء من دینکم - وفى رواية إذا حدثتكم عن الله شيئاً - فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر .

(١) فى باب : وجوب امتثال ما قاله ﷺ شرعاً ، دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأى .

وصيغة هذا الحديث واضحة في الهدف الذى هدفنا إليه من هذا الكتاب، وهو تعدد جوانب الرسول عليه السلام، فكان له جانب بشرى يجوز عليه من أجله ما يجوز على البشر، وجانب آخر يمتاز به عن البشر وهو ما يتصل فيه بربه جلّت عظمته من حيث إنه رسوله وإنه كلف بتبليغ رسالته إلى الناس كافة.

والنوى يعلق على هذا الحديث بقوله: قال العلماء: رأيه ﷺ في أمور المعاش كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا - وقوع ما يخالف رأيه كخروج النخل شيصا هنا - ولا نقص في ذلك: وسببه تعلق همه بالآخرة ومعارفها.

وقال الأبي قال القرطبي: قال ذلك ﷺ لأنه لم يكن عنده علم باستمرار العادة؛ لأنه ﷺ لم يكن ممن عانى الفلاحة فخفيت عليه تلك الحالة، وتمسك ﷺ بالقاعدة الكلية وأنه لا يؤثر ولا يغنى إلا الله تعالى. والأبي يعلق على اعتذار القرطبي عن الرسول عليه السلام في ذلك بقوله: يرد أن يقال: اجتماع الذكر والأنثى سبب واضح في حصول النتيجة كما نص عليه القرآن فكيف يلغى اعتبار ما نص على اعتباره القرآن، ثم قال: والجواب أن سببها أمر عادى مشاهد فى الحيوان، وأما فى الأشجار فمستنده التجربة.

وما ينقل عن النووى فى الشرح يتفق مع ما يذكره ابن خلدون حيث يقول: إنه ﷺ يقول فى أمور المعاش من طب وزراعة بما يقول به الناس حوله ناتجاً عن تجارب وعادة - وهذا فيما لا وحى فيه طبعاً - .

وتتجلى صحة هذا الرأى بالمقارنة بين ما غاب عنه ﷺ من شئون النخل التى تعتبر بدهية لدى أهل المدينة؛ لأنه ﷺ نشأ فى بلد غير ذى زرع - مكة - ولم يكن لأهلها علم بحال النخيل وما يصلحه وما يفسده من جهة وبين تمام خبرته ﷺ ببعض نبات جبال مكة وصحاريها مما يعلمه رعاة الغنم من جهة أخرى. فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجنى الكباش فقال ﷺ عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: وهل من نبي إلا وقد رعاها<sup>(١)</sup>.

(١) قال الحافظ ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث: الكباش بفتح الكاف والباء آخره مثلثة هو النضج من ثمر الأراك ليس له عجم، وإنما قال له أصحابه: أكنت ترعى الغنم؟ لأن فى قوله =

ومثال آخر لما بدا من اجتهاده ﷺ في صورة تفضيل الترك على الفعل ما يرويه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة عن أيتهما دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير<sup>(١)</sup>؟ إني أجد منك ريح مغافير! قال: لا، ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبرى بذلك أحداً! فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ ﴿٣﴾.

١ - فهو عليه السلام رأى أن لا يعود لشرب العسل ظناً منه أن رائحته كريهة غير مقبولة.

٢ - لكن الله جل شأنه لم يقره على ما رأى بل عاتبه عليه بقوله سبحانه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

\*\*\*

= لهم: عليكم بالأسود منه دلالة على تمييزه بين أنواعه. والذي يميز بين أنواع ثمر الأراك غالباً من يلازم رعى الغنم على ما الفوه، لأن راعيها كثيراً ما يجوس خلال الأشجار لابتغاء المرعى منها، والمتردد على الشيء يكون خبيراً به.

(١) المغافير بالعين المعجمة والفاء بعدها ياء ثم راء جمع مغفور، صمغ حلو له رائحة كريهة وكان ﷺ يكره الرائحة الكريهة. قال فى النهاية: المغافير شىء ينضجه شجر العرفط، حلو له رائحة كريهة منكورة. والعرفط شجر الطلع وله صمغ كريبه الرائحة فإذا أكلته النحل حصل فى عسلها من ريحه.

(٢) معنى قوله تعالى فى الآية الكريمة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ لم تمتنع، و ﴿مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾ العسل. والاستفهام ليس على حقيقته، بل هو عتاب على الامتناع عن الحلال مع اعتقاد حله مرضاة لبعض أزواجه، لا أنه ﷺ اعتقد تحريم الحلال - حاشاه ﷺ -.

## • ما بدا من اجتهاده في صورة النهي العام

يروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم مكة لا يعضد شجرها»<sup>(١)</sup>. فقال العباس يا رسول الله! إلا الإذخر لصناعتنا وقبورنا، فقال ﷺ: «إلا الإذخر»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية أخرى: وهذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لا يحل فيه القتال لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه.. الخ..»، فقال العباس: يا رسول الله! إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال ﷺ: «إلا الإذخر». وفي رواية: قال العباس: يا رسول الله! إن أهل مكة لا صبر لهم على الإذخر، لقينهم وبيوتهم.

والقرافى - فى تنقيح الفصول - يعلق على هذا الحديث بقوله: فهذا يدل على أنه ﷺ لما بين له العباس الحاجة إلى الإذخر أباحه بالاجتهاد للمصلحة.

والحافظ يقول: إن هذا يدل على أن الاستثناء فى كلام العباس لم يرد به أن يكون هو المستثنى، وإنما أراد به أن يلحق النبى الاستثناء.

ويقول الطبرى: ساغ للعباس أن يستثنى بعد أن علم أن المحرم هو الله؛ لأنه احتمال عنده أن يكون المراد بتحريم مكة تحريم القتال دون ما ذكر من تحريم عضد الشجر فإنه من تحريم الرسول باجتهاده فساغ له أن يسأله استثناء «الإذخر».

١ - فالرسول عليه السلام حرم باجتهاده فى صيغة العموم قطع «الإذخر».

٢ - ثم عدل عن تحريمه إلى إباحته عندما تكشفت له الحاجة إليه. وهذا ما يفيد شرح الطبرى والقرافى.

(١) أى لا يقطع.

(٢) الإذخر نبت معروف عند أهل مكة طيب الرائحة، وقضبانة دقاق، ينبت فى السهل والحزن، وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الخشب ويسددون به الخلل بين اللبنة فى القبور ويستعملونه فى الوقود، ولهذا قال العباس: فإنه لقينهم وهو الحداد أو كل ذى صناعة يعالجها بنفسه. ويكثر أن يكون ذلك بواسطة النار.

## • ما بدا من اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المنافقين

قال ابن كثير: قال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي<sup>(١)</sup> إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له ﷺ: «أهلك حب يهود». قال: يا رسول الله! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنّبني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه (إذا مات) فأعطاه إياه.

قال ابن كثير: فإذا صححت هذه الرواية دلت على أنه ﷺ استغفر له وهو حي، فأنزل الله - وعبد الله حي أيضاً - : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال في تفسير المنار تعليقاً على ذلك: والظاهر أنه كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو للمشركين ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

ويروى البخاري - ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي - عن ابن عمر أنه قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله ليصلى، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه<sup>(٣)</sup>؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني

(١) كان من كبار المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وكانت وفاته سنة ٩هـ.

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) الذي يظهر من سياق القصة أن عمر رضى الله عنه فهم النهي من قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أو منها ومن التسوية بين الاستغفار وعدمه. قال الكرماني: لأن الشيء الذي يستوى حصوله وعدمه يكون طلبه عبثاً، والعبث محظور على العقلاء فضلاً على الأنبياء.. وقال الآلوسي: ولم ينزل بين ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وبين ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ شيء، وما فهمه عمر من النهي فمأخوذ من الآية الأولى، أى لأنه لو كان هناك ما يفيد النهي غيرها لذكره عمر بعد المعارضة، وكذا لما خفى عليه ﷺ. ونص عبارة الآلوسي عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾:

وظاهر هذين الخبرين أنه لم ينزل بين ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ شيء ينفع عمر رضى الله عنه وإلا لذكره. والظاهر أن مراده بالنهي فى =

الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيد على السبعين، قال: إنه منافق، قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

والبخارى يروى أيضاً من طريق آخر عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول، دعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله! أتصلى على ابن أبي، وقد قال يوم كذا: كذا، وكذا<sup>(٢)</sup>؟ قال: أعدد عليه قوله! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أخّر عنى يا عمر»، فلما أكثرت عليه قال: «إنى خيرت، فاخترت، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها» قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً، حتى نزلت الآيات من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ قال: فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم.

قال ابن المنير: وإنما قال ذلك عمر حرصاً على النبي ﷺ ومشورة لا إلزاماً، وله عهدٌ بذلك.

وقال الحافظ ابن حجر: واستشكل الداودى تبسمه ﷺ عند الجنازة، وأجيب بأنه عبر عن طلاقة وجهه بالتبسم، وإنما فعل ذلك تأنيساً لعمر، وتطييناً لقلبه كالمعتذر عن ترك قبول كلامه ومشورته:

= الخبر الأول ما فهمه من الآية الأولى، لا ما يفهم كما قيل من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ لعدم مطابقة الجواب حيثئذ. ثم قالوا: وإنما نهى ﷺ عن الصلاة ولم ينه عن إعطاء القميص مظنة الإخلال بالكرم.

(١) التوبة: ٨٤.

(٢) أى القاتل فى غزوة بنى المصطلق - وكانت سنة ست - ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَى﴾، والقاتل: ﴿لَا تَقْفُوا عَلَى مَنْ عِبَدَ رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾. وروى قتادة عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ...﴾ [التوبة: ٧٤] - قال: نزلت فى عبد الله بن أبى، وذلك أنه اقتتل رجلاً جهنى (مكى) وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى. فقال عبد الله بن أبى للأنصار: ألا تنصرون أحاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القاتل: سمن كلبك يأكلك - وسيأتى تفصيل هذه القصة فى ص ٦٧ من هذا الكتاب.

١ - فالرسول عليه السلام عندما طلب منه عبد الله بن أبي - وهو رأس المنافقين كما يقولون - أن يستغفر له استغفر له اجتهداً منه ودعا ربه العفو عنه .

٢ - لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه وبالتالي لم يستجب لدعائه، كما جاء في كتابه الكريم: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ .

فلو كان استغفار الرسول عليه السلام لعبد الله بن أبي عن وحى ولم يكن عن رأى اجتهدى منه لما نفى سبحانه وتعالى - هنا فى هذه الآية الكريمة - قبوله وأكد ذلك بعدم وقوعه فيما بعد أيضاً .

\*\*\*

ومن اطلع على هذه الروايات التى دوت فى كل تواليف الحديث (وفى مقدمتها البخارى ومسلم) يعرف أنه ﷺ اجتهد فاستغفر لبعض المنافقين - واجتهد فصلى عليه - فعاتبه الله على ذلك، بل ربما يسترسل فى تخريجها فىرى أنه ﷺ اجتهد فوق ذلك فى فهم القرآن وأن فهم غيره كان هو الصواب .

ولما كان هذا أمراً خطيراً، رأينا - من باب الاستطراد - أن نورد هنا كل ما اتصل بهذا الموضوع من القرآن والسنة ونعرضه فى صعيد واحد علنا نصل منه إلى شىء تظمن إليه النفس فنقول وبالله التوفيق :

قد يعكر على ما يفهم من دعائه ﷺ وصلاته على المنافقين أمور:

١ - منها أن البخارى ومسلماً وأحمد وابن أبى شيبة والنسائى وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل وآخرين، يروون عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه عليه ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال ﷺ: أى عم!، قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فجعل ﷺ يعرضها عليه، وأبو جهل وعبد الله يعاودانه بتلك المقالة، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال ﷺ: «لاستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت الآية الكريمة: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾  
 وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ  
 إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾.

وروى الطبرى - فى سبب نزول الآية - عن عمرو بن دينار قال: قال النبى  
 ﷺ: «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر لأبى طالب حتى ينهانى  
 عنه ربى»، فقال أصحابه: لنستغفرن لأبائنا كما استغفر نبينا لعمه، فنزلت الآية:  
 ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾.

فهذا الحديث الصحيح يدل أولاً على أنه ﷺ سبق له أن اجتهد واستغفر لبعض  
 الكفار، ونهاه الله؛ إذ موت أبى طالب كان بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين وموت  
 عبد الله بن أبى ابن سلول كان فى ذى القعدة سنة تسع.

٢ - ومنها أنه نزل عليه ﷺ فى سورة الممتحنة - سنة ست - ما يوجب على  
 المؤمن التبرؤ من عدو الله، فضلاً عن الاستغفار له، وضرب لهم مثلاً بأباهم  
 إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه وأنه قدوتهم فى كل شىء إلا فى وعده أباه  
 بالاستغفار، أى فلا تقتدوا به فى ذلك فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا  
 عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ...﴾ - إلى  
 قوله: - ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ  
 وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ  
 وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

٣ - ومنها أنه نزل عليه ﷺ فى سورة النساء - سنة ست -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ  
 يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (١)،  
 وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ  
 ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٢).

(١) التوبة: ١١٣، ١١٤.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) النساء: ١١٦.

٤ - ومنها أنه نزل عليه ﷺ قبل ذلك في عبد الله بن أبي ابن سلول هذا ومن معه سورة «المنافقين» - وكان نزولها بعد غزوة بني المصطلق التي كانت في شعبان سنة - ست - وفي هذه السورة ما يفيد أن الله طبع على قلب ابن أبي، وأنه لا يؤمن ولا ينفع له استغفار. قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ١ ﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ٣ ﴾ فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... ٤ ﴾ - إلى أن قال: - ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ٥ ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٦ ﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٧ ﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٨ ﴾ يَقُولُونَ لِنَنْ رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنَ الْأَذْلِ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٩ ﴾ .

والبخارى في سبب نزول هذه السورة يروى عدة أحاديث وزعها على سبعة أبواب، وكلها تدور حول موقف قبيح مخزٍ لعبد الله بن أبي ابن سلول:

فمنها: عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة<sup>(٢)</sup> فسمعت عبد الله بن أبي يقول:

(١) آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من دخل في الإسلام، ثم كفروا ظهر كفرهم وتبين من أقوالهم وأفعالهم أو المعنى: ثم أصروا على الكفر. و«ثم» للبعد ما بين المتزلتين. وإذا كان القائل هو عبد الله بن أبي فكيف جمع «الضمانر»؟

قيل: من باب بنى تميم قتلوا فلاتاً، والقاتل واحد منهم - لا سيما وهم على رأى واحد.  
(٢) هى غزوة بنى المصطلق، وكانت في شعبان سنة ست. فقد روى البخارى في باب قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ عن جابر بن عبد الله قال: كنا في غزاة فكسع - أى ضرب عجزه بقدمه - رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: يا للأنصار! وقال المهاجرى: يا للمهاجرين! فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى جاهلية؟»، قالوا يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها فإنها منتنة»، فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبى ﷺ فدعاه فانكر. إلى أن قال في الحديث: وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد. وفي رواية =

«لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفذوا من حوله»، «ولو رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرزُ منها الأذل»، فذكرت ذلك لعمى<sup>(١)</sup>، فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدثته، فأرسل ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبت رسول الله وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمى: ما أردت إلى أن كذبتك<sup>(٢)</sup> رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾ الآية، فبعث إلي النبي ﷺ فقرأها فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد»<sup>(٣)</sup>. وفي رواية: فرجعت إلى المنزل فتمت مخافة أن يرانى الناس فيقولوا: كذبت.

ومنها: أنه نزل عليه ﷺ من سورة التوبة في أثناء رجوعه من غزوة «تبوك» ما فضح المنافقين سواء منهم من كان معه في السفر أم من تخلف بالمدينة بأعذار كاذبة كعبد الله بن أبي ومن على شاكلته كأصحاب مسجد الضرار الذى كان سيصلى فيه عقب رجوعه فنهاه الله وفضح من بناه منهم من رءوس النفاق.

فما نزل في عبد الله بن أبي في أثناء الطريق: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

= للبخارى أيضاً: إن عمر قال عند ذلك: دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: هذا مما يؤيد تقدم القصة على «تبوك»، ويوضح وهم من قال إن تلك الغزاة كانت تبوك؛ لأن المهاجرين حين تبوك كانوا كثيرين جداً، وقد انضفت إليهم مسلمة الفتح في غزوة «تبوك» فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار، وقد سمى ابن إسحاق والإسماعيلي وعروة هذه الغزاة بأنها «بنى المصطلق»، وهذا هو الذى عليه أهل المغازى.

(١) قال الحافظ ابن حجر: أراد بعمه هنا «سعد بن عباد»، وليس هو عمه على الحقيقة، وإنما هو سيد قومه، الخزرج.

(٢) قال الكرمانى: أى ما قصدت متهيئاً إليه، والمعنى ما حملك حتى صرت إلى أن كذبتك ﷺ.

(٣) إذا تأملت سياق أحاديث سورة المنافقين يتبين لك جلياً أن نزول السورة وما يتعلق بعبد الله ابن أبي كان عقب الغزوة مباشرة؛ إذ يقول الراوى: إنى مكثت في البيت خوف الخزى حتى نزلت السورة. ومن هنا تعلم ضعف جواب أن سورة المنافقين نزلت بعد «تبوك».

(٤) التوبة: ٩٥، ٩٦.

قال البغوى: قال مقاتل: نزلت - هذه الآية - فى عبد الله ابن أبى ابن سلول، حلف له ﷺ بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عنه أبداً بعدها وطلب منه ﷺ أن يرضى عنه .

من كل هذا يتبين:

أن النبى ﷺ نهى عن الاستغفار للمشركين قبل الاستغفار لابن سلول بمدة ثنتى عشرة سنة. ولا يجوز أن يخالف ﷺ نهى الله طول هذه المدة؛ بل ولا طرفة عين .

وأجاب الواحدى عن ذلك بأن استغفاره ﷺ لأبى طالب وإن كان قبل الهجرة لكن النهى عنه لم يرد إلا فى سنة تسع .

وعليه فلا يراد بقوله فى حديث أبى طالب «نزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾» أن النزول كان عقب الاستغفار؛ بل يراد أن ذلك سبب النزول. ف«الفاء» فيه للسببية لا للتعقيب. قال الألوسى: واعتمد على هذا التوجيه كثير من جلة العلماء - وهو توجيه جيد - .

وأنت ترى أن هذا الجواب صريح فى أنه ﷺ مكث يستغفر لأبى طالب خطأ زهاء اثنتى عشرة سنة. فهل يجوز أن يتركه الله على خطئه كل هذه المدة؟ .

وأجاب بعضهم: بأنه لا مانع أن يكون الرسول علم بالنهى عن الاستغفار للمشركين، ولكنه فهم أن ابن سلول ليس كافراً صريحاً، فاستغفر له اجتهاداً منه. ولما ردَّ عليه: بأنه كيف يصلى عليه بعد نهيهِ عن الاستغفار له، وبعد ما جاء فى تذييل آية النهى عن الاستغفار ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؟، أجب بأن هذا التذييل بعد الحادث، لا متصلاً بالآية .

وأنت ترى ما فى هذا الجواب!! .

والإشكال الذى لم يوجد له جواب صحيح هو أن النبى ﷺ سبق أن نهى عن الاستغفار لعبد الله بن أبى نفسه قبل موته بنحو عامين كما جاء فى سورة المنافقين - كما تقدم - . وأيضاً ما قاله الزمخشرى: من أنه كيف يخفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن المراد بـ «السبعين» أن الاستغفار ولو كثر لا

يجدى، لا سيما وقد جاء بعده قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم؟.

ولذا قال الحافظ ابن حجر: واستشكل فهم «التخيير» - ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ - من الآية حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن في صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه: قال ابن المنير: مفهوم الآية زلت فيه الأقدام، حتى أنكر القاضى أبو بكر الباقلانى صحة هذا الحديث، وقال: لا يجوز أن يقبل هذا، ولا يصح أن الرسول قاله. وصيغة ما قاله فى كتاب «التقريب»: وهذا الحديث من أخبار الآحاد التى لا يعلم ثبوتها. وقال الغزالى فى كتاب «المستشفى»: الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح. وقال ابن المنير: ليس عند أهل البيان تردد فى أن التخصيص بالعدد فى هذا السياق غير مراد، فقصد المبالغة واضح؛ فلذا استشكلوا قوله ﷺ: «سأزيد على السبعين» مع أن حكم ما زاد عليها حكمها. ولذا قال بعض العلماء: والحق أن هذا الحديث معارض للآيتين: «براءة»، وآية «المنافقين»..

فالذين يعنون بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يجدوا ما يجيبون به عن هذا التعارض إلا الحكم بعدم صحة هذا الحديث، ولو من جهة متنه. وقد تقدم كثير منهم كالقاضى أبى بكر الباقلانى والغزالى. وأما الذين يعنون «بالأسانيد» أكثر من عنايتهم بـ «المتون»، وبالفرع أكثر من الأصول فقد تكلفوا أجوبة لا يقبلها منصف.

ومن الأصول المتفق عليها: أنه ليس كل ما صح سنده صح متنه، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعى، وأن القرآن مقدم على الحديث عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما.

\*\*\*